٢ ـ أبو جعفر المنصور

«عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس»، وأمه «سلامة البربرية» أم ولد.

ولي الخلافة بعد وفاة أخيه «أبي العباس» المعروف بالسفَّاح، مؤسس دولة بني العباس، وبويع «أبو جعفر» بالخلافة سنة ست وثلاثين ومائة، يوم وفاة أخيه، وكان «أبو جعفر» بمكة يومئذ، وقد أخذ له البيعة بالعراق «عيسى بن موسى»، وأرسل «عيسى بن موسى» إليه «محمد بن الحصين» العبدي، يعلمه بموت «أبي العباس» والبيعة له، فلقيه في الطريق في موضع يقال له: «زكيَّة»، فلما جاءه الكتاب، دعا الناس فبايعوه، وبايعه «أبو مسلم الخراساني»، فقال «أبو جعفر»: أين موضعنا هذا؟ قالوا «زَكيَّة»، فقال: أمر يزكي لنا، إن شاء الله تعالى، وقال بعضهم: ورد على «أبي جعفر» البيعة له بعدما صدر من الحج، في منزل من منازل طريق مكة، يقال له «صفيَّة» فتفاءل باسمه، وقال: صَفَتْ لنا إن شاء الله تعالى.

وقال «ابن جرير الطبري»: إن «أبا مسلم» عرف الخبر قبله فكتب إلى «أبي جعفر»:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، عافاك الله وأمتع بك، وإنه أتاني أمر أفظعني، وبلغ مني مبلغاً لم يبلغه شيء قط؛ لقيني «محمد بن الحصين» بكتاب من «عيسى بن موسى» إليك بوفاة «أبي العباس» أمير المؤمنين رحمه الله، فنسأل الله أن يعظم أجرك، ويحسن الخلافة عليك، ويبارك لك فيما أنت فيه، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيماً لحقك، وأصفى نصيحة لك، وحرصاً على ما يسرُّك مني.

وأنفذ الكتاب إليه، ثم مكث «أبو مسلم» يومه ومن الغد، ثم بعث إلى «أبي جعفر» بالبيعة؛ وإنما أراد ترهيب «أبي جعفر» بتأخيرها ـ قال علي بن محمد: فلما جلس «أبو مسلم» ألقى إليه الكتاب، فقرأه وبكى واسترجع، قال: ونظر «أبو

مسلم» إلى «أبي جعفر» وقد جزع جزعاً شديداً، فقال: ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة؟ فقال: أتخوَّف شرَّ «عبد الله بن علي» وشيعة «عليٍّ» فقال: لا تخفه، فأنا أكفيك أمره إن شاء الله؛ إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان، وهم لا يعصونني، فسُرِّيَ عن «أبي جعفر» ما كان فيه، وبايع له «أبو مسلم» وبايع الناس، وأقبلا حتى قدما الكوفة[١].

وسرَّح «أبو جعفر» لقتال «عبد الله بن علي» أبا مسلم، فهُزِم «عبد الله»، ثم كافأ «المنصور» أبا مسلم، فقتله.

وذكر «الدميري» في «حياة الحيوان الكبرى» أن «أبا جعفر المنصور» حين حج ثانية، ولما قرب من مكة رأى على جدار سطرين مكتوبين وهما:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ... سنوك وأمر الله لا بد واقع
أبا جعفر هل كاهن أو منجم ... لك اليوم من ريب المنية دافع

فلما قرأهما تيقَّن انقضاء أجله، فمات بعد ثلاثة أيام، وكان قد رأى في نومه قبل موته قائلاً يقول:

كأني بهذا القصر قد باد أهله ... وعُرِّيَ منه أهلُه ومنازلُهْ
وصار رئيس القوم من بعد بهجةٍ ... إلى جدث تبنى عليه جنادِلُهْ[٢]

وقال «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: بويع بالخلافة بعهد من أخيه، وكان فَحْل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً، جَمَّاعاً للمال، تاركاً للهو واللعب، كامل العقل، جيِّد المشاركة في العلم والأدب، فقيه النفس، قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه، وهو الذي ضرب «أبا حنيفة» رحمه الله على القضاء، ثم سجنه فمات بعد أيام، وقيل: إنه قتله بالسم لكونه أفتى بالخروج عليه.

وكان فصيحاً بليغاً مفوَّهاً خليقاً للإمارة، وكان غاية في الحرص والبخل، فلقِّب «أبا الدوانيق» لمحاسبته العمال والصُّنَّاع على الدوانيق والحبات.

أخرج الخطيب، عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «منا

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).
(٢) حياة الحيوان الكبرى (١/ ٧٤).

السفَّاح، ومنا المنصور، ومنا المهدي»، قال الذهبي: منكر منقطع.

وأخرج الخطيب وابن عساكر وغيرهما، من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «منا السفَّاح، ومنا المنصور، ومنا المهدي»، قال الذهبي: إسناده صالح.

وأخرج ابن عساكر، من طريق ابن أبي إسرائيل، عن محمد بن جابر، عن الأعمش، عن أبي الودَّاك، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «منا القائم، ومنا المنصور، ومنا السفاح، ومنا المهدي، فأما القائم فتأتيه الخلافة ولم يهرق فيها محجمة من دم، وأما المنصور فلا ترد له راية، وأما السفاح فهو يسفح المال والدم، وأما المهدي فيملؤها عدلاً كما ملئت ظلماً».

وعن «المنصور» قال: رأيت كأني في الحرم، وكأن رسول الله ﷺ في الكعبة، وبابها مفتوح، فنادى مناد: أين عبد الله؟ فقام أخي أبو العباس، حتى صار على الدرجة فأُدْخِلَ، فما لبث أن خرج ومعه قناة عليها لواء أسود قدر أربعة أذرع، ثم نودي: أين عبد الله؟ فقمت على الدرجة، فأُصعِدْتُ، وإذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وبلال، فعقد لي وأوصاني بأمته، وعممني بعمامة، فكان كورها ثلاثة وعشرين، وقال: «**خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة**».

وأضاف «السيوطي» يقول: تولى «المنصور» الخلافة في أول سنة سبع وثلاثين ومائة، فأول ما فعل أن قتل «أبا مسلم الخراساني» صاحب دعوتهم وممهد مملكتهم.

قال أبو المظفر الأبيوردي: فكانوا يقولون: ملك الدنيا ابنا بربريتين: «المنصور» و«عبد الرحمٰن بن معاوية».

وفي سنة أربعين ومائة شرع في بناء مدينة «بغداد».

وفي سنة إحدى وأربعين ومائة كان ظهور الراوندية القائلين بالتناسخ، فقتلهم «المنصور» وفيها فتحت «طبرستان».

قال الذهبي: في سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث، والفقه، والتفسير، فصنَّف ابن جُرَيْج بمكة، و«مالك»

الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة، وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنَّف ابن إسحاق المغازي، وصنَّف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي، ثم بعد يسير صنَّف هُشَيْم، والليث، وابن لهيعة، ثم ابن المبارك، وأبو يوسف، وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية، واللغة، والتاريخ، وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة.

وفي سنة خمس وأربعين ومائة، كان خروج الأخوين «محمد» و«إبراهيم» ابني «عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب» فظفر بهما «المنصور» فقتلهما، وجماعة كثيرة من آل البيت، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان «المنصور» أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين، وكانوا قبل شيئاً واحداً، وآذى «المنصور» خلقاً من العلماء ممن خرج معهما، أو أمر بالخروج قتلاً وضرباً وغير ذلك، منهم «أبو حنيفة» و«عبد الحميد بن جعفر» و«ابن عجلان»، وممن أفتى بجواز الخروج مع «محمد» على «المنصور»، «مالك بن أنس» رحمه الله، وقيل له: إن في أعناقنا بيعة للمنصور، فقال: إنما بايعتم مكرهين، وليس على مُكْرَهٍ يمين.

وفي سنة ست وأربعين ومائة، كانت غزوة «قبرص».

وفي سنة سبع وأربعين ومائة، خلع «المنصور» عمه «عيسى بن موسى» من ولاية العهد، وكان «السفاح» عهد إليه من بعد «المنصور»، وكان «عيسى» هو الذي حارب له الأخوين فظفر بهما، فكافأه بأن خلعه مكرهاً، وعهد إلى ولده «المهدي».

وفي سنة ثمان وأربعين ومائة توطدت الممالك كلها للمنصور، وعظمت هيبته في النفوس، ودانت له الأمصار، ولم يبق خارجاً عنه سوى جزيرة الأندلس فقط، فإنها غلب عليها «عبد الرحمٰن بن معاوية» الأموي المرواني، لكنه لم يتلقَّب بأمير المؤمنين، بل بالأمير فقط، وكذلك بنوه.

وفي سنة تسع وأربعين ومائة، فرغ من بناء بغداد.

وفي سنة خمسين ومائة، خرجت الجيوش الخراسانية، عن الطاعة مع الأمير أستاذ «سيس» واستولى على أكثر مدن خراسان، وعظم الخطب، واستفحل الشر، واشتَدَّ على المنصور الأمر، وبلغت ضريبة الجيش الخراساني ثلاثمائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل، فعمل معهم، «أجشم» المروزي مصافاً، فقتل «أجشم» واستبيح عسكره، فتجهز لحربهم «خازم بن خزيمة» في جيش عَرَمْرَم يسد الفضاء، فالتقى الجمعان، وصبر الفريقان، وكانت وقعة مشهورة، يقال: قتل فيها سبعون ألفاً، وانهزم أستاذ «سيس»، فالتجأ إلى جبل، وأمر الأمير «خازم» في العام الآتي بالأسرى، فضربت أعناقهم، وكانوا أربعة عشر ألفاً، ثم حاصروا أستاذ «سيس» مدة، ثم سلم نفسه فقيدوه وأطلقوا أجناده، وكان عددهم ثلاثين ألفاً.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائة، بنى «الرصافة» وشيَّدها.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومائة، ألزم «المنصور» رعيته بلبس القلانس الطوال، فكانوا يعملونها بالقصب والوَرِق، ويلبسونها السواد، فقال «أبو دلامة»:

وكنا نرجِّي من إمام زيادةً فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها دِنانُ يهودٍ جُلِّلت بالبرانس

وفي سنة ثمان وخمسين ومائة، أمر «المنصور» نائب مكة بحبس «سفيان الثوري»، و«عباد بن كثير»، فحبسا، وتخوَّف الناس أن يقتلهما «المنصور» إذا ورد الحج، فلم يوصله الله مكة سالماً، بل قدم مريضاً ومات، وكفاهما الله شره، وكانت وفاته بالبطن في ذي الحجة، ودفن بين الحجون وبين بئر ميمون، وقال سَلْمُ الخاسر:

قفل الحجيج وخلَّفوا ابن محمد رهناً بمكة في الضريح الملحدِ
شهدوا المناسك كلها وإمامهم تحت الصفائح محرماً لم يشهدِ[1]

أما خبر «المنصور» مع الراوندية فقد ذكر ابن جرير الطبري، في تاريخه، فقال: والراوندية قوم ـ فيما ذكر عن علي بن محمد ـ كانوا من أهل خراسان، على رأي «أبي مسلم» صاحب دعوة بني هاشم: يقولون ـ فيما زعم ـ بتناسخ

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٢٩ ـ ٢٣٢.

الأرواح، ويزعمون أن روح «آدم» في «عثمان بن نهيك» وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم، هو «أبو جعفر المنصور»، وأن «الهيثم بن معاوية» جَبْرَائيل.

قال: وأتوا قصرَ «المنصور» فجعلوا يطوفون به، ويقولون: هذا قصر ربنا، فأرسل «المنصور» إلى رؤسائهم، فحبس منهم مائتين، فغضب أصحابهم، وقالوا: عَلامَ حُبِسوا؟ وأمر «المنصور» ألَّا يجتمعوا، فأعدوا نعشاً، وحملوا السرير ـ وليس في النعش أحد ـ ثم مرُّوا في المدينة، حتى صاروا على باب السجن، فرموا بالنعش وشَدُّوا على الناس ـ ودخلوا السجن، فأخرجوا أصحابهم، وقصدوا نحو «المنصور» وهم يومئذٍ ستمائة رجل، فتنادى الناس، وغُلِّقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد، فخرج «المنصور» من القصر ماشياً، ولم يكن في القصر دابة، فجعل بعد ذلك اليوم يرتبط فرساً يكون في دار الخلافة معه في قصره.

قال: ولما خرج «المنصور» أُتِيَ بدابة فركبها، وهو يريدهم، وجاء «معن بن زائدة»، فانتهى إلى «أبي جعفر»، فرمى بنفسه وترجَّل، وأدخل بركة قَبائه في مِنْطَقَته، وأخذ بلجام دابة «المنصور»، وقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين! إلَّا رجعتَ؛ فإنكَ تُكْفَى.

وجاء «أبو نصر»؛ مالك بن الهيثم، فوقف على باب القصر، وقال: أنا اليوم بواب، ونُودِيَ في أهل السوق، فَرَمَوْهُمْ وقاتلوهم حتى أثخنوهم، وفتح باب المدينة، فدخل الناس،

وجاء «خازم بن خزيمة» على فرس محذوف ـ مقصوص شعر الذَّنب ـ، فقال: يا أمير المؤمنين! أقتُلهم؟ قال: نعم فحمِل عليهم حتى ألجاهم إلى ظهر حائط، ثم كَرُّوا على «خازم» فكشفوه وأصحابه، ثم كَرَّ «خازم» عليهم، فاضطرهم إلى حائط المدينة، وقال للهيثم بن شعبة: إذا كرُّوا علينا فاسبقهم إلى الحائط، فإذا رجعوا فاقتلهم، فحملوا على «خازم»، فاطَّرَدَ لهم، وصار «الهيثم بن شعبة» من ورائهم، فقتلوا جميعاً.

وجاءهم يومئذ «عثمان بن نهيك»، فكلمهم، فرجع فرموه بنشابة، فوقعت بين كتفيه؛ فمرض أياماً ومات منها، فصلى عليه «أبو جعفر»، وقام على قبره حتى دُفِنَ، وقال: رحمك الله «أبا يزيد!»، وصيَّر مكانه على حرسه «عيسى بن نهيك»،

فكان على الحرس حتى مات؛ فجعل على الحرس «أبا العباس الطوسي».

وجاء يومئذ «إسماعيل بن علي»، وقد أغلقت الأبواب، فقال للبواب: افتح ولك ألف درهم؛ فأبى، وكان «القعقاع بن ضرار» يومئذ بالمدينة، وهو على شُرَط «عيسى بن موسى»، فأبلى يومئذ؛ وكان ذلك كله في المدينة الهاشمية بالكوفة. قال: وجاء يومئذ «الربيع» ليأخذ بلجام «المنصور»، فقال له «معن»: ليس هذا من أيامك، فأبلى «أبرويز بن المَصْمُغَان» ملك دُنْبَاوَنْدَ - وكان خالف أخاه، فقدم على «أبي جعفر» فأكرمه، وأجرى عليه رزقاً؛ فلما كان يومئذ أتى «المنصور» فكفَّر له، وقال: أقاتل هؤلاء؟ قال له: نعم، فقاتلَهم، فكان إذا ضرب رجلاً فصرعه تأخر عنه - فلما قُتِلوا وصَلَّى «المنصور» الظهر دعا بالعشاء، وقال: أطلعوا «معن بن زائدة»، وأمسك عن الطعام حتى جاءه «معن»، فقال لقُثَم: تحوَّل إلى هذا الموضع، وأجلسْ «مَعْناً» فكان «قُثَم»، فلما فرغوا من العشاء، قال لعيسى بن علي: يا أبا العباس! أسمعت بأشد الرجال؟ قال: نعم، قال: لو رأيت اليوم «مَعْناً» علمت أنه من تلك الآساد.

قال «معن»: والله يا أمير المؤمنين! لقد أتيتك وإني لوجل القلب، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم، وشدة الإقدام عليهم، رأيت أمراً لم أره من خَلْق في حرب، فشدَّ ذلك من قلبي، وحملني على ما رأيت مني.

وقال «أبو خزيمة»: يا أمير المؤمنين! إن لهم بقية، قال: فقد ولَّيتُك أمرهم فاقتلهم، قال: فأقتل «رِزاماً» فإنه منهم، فعاذ «رِزام» بجعفر بن أبي جعفر، فطُلِبَ فيه فآمنه.

وقال «علي» عند «أبي بكر الهذلي»، قال: إني لواقف بباب أمير المؤمنين، إذ طلع، فقال رجل إلى جانبي: هذا رب العزة! هذا الذي يطعمنا ويسقينا؛ فلما رجع أمير المؤمنين، ودخل عليه الناس دخلتُ وخلا وجهه، فقلت له: سمعتُ اليوم عجباً، وحدَّثْتُه؛ فنكت في الأرض، وقال: يا هُذَلي! يدخلهم الله النار في طاعتنا ويَقْتِلُهم، أحب إليَّ من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا. وتابع «أبو جعفر الطبري» قوله:

وذكر عن «جعفر بن عبد الله» قال: حدثني الفضل بن الربيع، قال: حدثني

أبي، قال: سمعت «المنصور» يقول: أخطأتُ ثلاث خَطِيَّات وقاني الله شرَّها: قتلت «أبا مسلم» وأنا في خرق، ومَنْ حولي يقدِّم طاعته ويؤثرها، ولو هُتِكت الخرق لذهبتُ ضَياعاً، وخرجت يوم الراوندية ولو أصابني سهم غَرْب لذهبتُ ضَياعاً، وخرجت إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق ذهبت الخلافة ضَياعاً.

وذكر أن «معن بن زائدة» كان مختفياً من «أبي جعفر» لِمَا كان منه من قتاله المُسَوِّدة مع «ابن هبيرة» مرة بعد مرة، وكان اختفاؤه عند «مرزوق أبي الخصيب»، وكان على أن يطلب له الأمان، فلما خرج الراوندية أتى الباب فقام عليه، فسأل «المنصور»، «أبا الخطيب» ـ وكان يلي حجابةَ «المنصور» يومئذ ـ مَنْ بالباب؟ فقال: «معن بن زائدة»، فقال «المنصور»: رجل من العرب، شديد النفس، عالم بالحرب، كريم الحسب، أدخله، فلما دخل قال: إيه يا معن! ما الرأي؟ قال: الرأي أن تنادي في الناس، وتأمر لهم بالأموال، قال: وأين الناس والأموال؟ ومَنْ يقدم على أن يُعَرِّضَ نفسه لهؤلاء العلوج؟ لم تصنع شيئاً يا مَعْنَ! الرأي أن أخرج فأقف؛ فإن الناس إذا رأوني قاتلوا وأَبْلَوْا وتابوا إليَّ، وتراجعوا، وإن أقمت تخاذلوا وتهاونوا، فأخذ «معن» بيده، وقال: يا أمير المؤمنين! إذاً والله؟ تقتل الساعة، فأنشدك الله في نفسك، فأتاه «أبو الخصيب» فقال مثلها، فاجتذب ثوبه منهما، ثم دعا بدابته، فركب ووثب عليها من غير ركاب، ثم سوَّى ثيابه، وخرج و«معن» آخذ بلجامه، و«أبو الخصيب» مع ركابه، فوقف، وتوجه إليه رجل، فقال: يا معن! دونك العلج، فشَدَّ عليه «معن» فقتله، ثم والى بين أربعة، وثاب إليه الناس وتراجعوا، ولم يكن إلا ساعة حتى أفنوهم، وتغيَّب «معن» بعد ذلك، فقال «أبو جعفر» لأبي الخصيب: ويلك! أين «معن؟» قال: والله! ما أدري أين هو من الأرض!

فقال: أيظن أن أمير المؤمنين لا يغفر ذنبه بعدما كان من بلائه؟ أعطه الأمان وأدخله عليَّ، فأدخله، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وولاه اليمن، فقال له «أبو الخصيب»: قد فرَّق صلته وما يقدر على شيء، قال: لو أراد مثل ثمنك ألف مرة لقدر عليه(١).

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٥٠٥ ـ ٥٠٨).

أخرج ابن عساكر بسنده أن «أبا جعفر المنصور» كان يرحل في طلب العلم قبل الخلافة، فبينا هو يدخل منزلاً من المنازل قبض عليه صاحب الرصد، فقال: زِنْ درهمين قبل أن تدخل، قال: خَلِّ عني فإني رجل من بني هاشم، قال: زِنْ درهمين، فقال: خَلِّ عني فإني من بني عم رسول الله ﷺ، قال: زِنْ درهمين، قال: خَلِّ عني فإني رجل قارىء كتاب الله، قال: زِنْ درهمين، قال: خَلِّ عني فإني رجل عالم بالفقه والفرائض، قال: زِنْ درهمين، فلما أعياه أَمْرُهُ وَزَنَ الدرهمين، فرجع ولزم جمع المال والتدنُّق فيه حتى لُقِّبَ بأبي الدوانيق.

وأخرج عن الربيع بن يونس الحاجب، قال: سمعت «المنصور» يقول: الخلفاء أربعة: «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» و«علي» والملوك أربعة: «معاوية» و«عبد الملك» و«هشام» وأنا.

وأخرج عن مالك بن أنس، قال: دخلتُ على «أبي جعفر المنصور» فقال: مَنْ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ قلت: «أبو بكر» و«عمر»، قال: أصبت، وذلك رأي أمير المؤمنين.

وأخرج عن إسماعيل الفهري، قال: سمعت «المنصور» في يوم عرفة على منبر عرفة يقول في خطبته: أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على فيئه، أقسمه بإرادته، وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلاً: إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، وإذا شاء أن يُقْفِلَني عليه أقفلني، فارغَبوا إلى الله أيها الناس! وسلوه في هذا البيت الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم في كتابه، إذ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية: ٣] أن يوفقني للصواب، ويسددني للرشاد، ويلهمني الرأفة بكم، والإحسان إليكم، ويفتحني لإعطائكم، وقسم أرزاقكم بالعدل، فإنه سميع مجيب.

وأخرجه «الصولي»، وزاد في أوله أن سبب هذه الخطبة أن الناس بَخَّلُوه، وزاد في آخره. فقال بعض الناس: أحال أمير المؤمنين بالمنع على ربه.

وأخرج عن الأصمعي وغيره: أن «المنصور» صَعَد المنبر، فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا

شريك له، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين! اذكر مَنْ أنت في ذكرِه، فقال: مرحباً مرحباً، لقد ذكرت جليلاً، وخوَّفت عظيماً، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له: اتَّقِ الله أخذته العزة بالإثم، والموعظة مِنَّا بدت، ومن عندنا خرجت، وأنتَ يا قائلها، فأحلف باللهِ ما اللهَ أردت بها، وإنما أردت أن يقال: قام فقال فعوقب فصبر، فأهون بها مِنْ قائلها! واهتبلها من الله، ويلك! إني قد غفرتها، وإياكم معشر الناس! وأمثالها، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فعاد إلى خطبته فكأنما يقرؤها من قِرْطَاس.

قال «المنصور» لابنه «المهدي»: يا أبا عبد الله! الخليفة لا يصلحه إلَّا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلَّا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلَّا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه.

وقال: لا تُبْرِمَنَّ أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تريه قبيحه وحسنه،، وقال: أيْ بُنَيَّ! استدم النعمة بالشكر، والمقدرة بالعفو، والطاعة بالتألُّف والنصر بالتواضع، والرحمة للناس.

وأخرج عن مبارك بن فضالة، قال: كنا عند «المنصور»، فدعا برجل، ودعا بالسيف، فقال المبارك: يا أمير المؤمنين! سمعت «الحسن» يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة، قام مناد من عند الله ينادي: لِيَقُم الَّذين أجرهم على الله، فلا يقوم إلَّا مَنْ عفا»**، فقال «المنصور»: خَلُّوا سبيله.

وأخرج عن الأصمعي، قال: أُتِيَ «المنصور» برجلٍ يعاقبه، فقال: يا أمير المؤمنين! الانتقام عدل، والتجاوز فضل، ونحن نعيذُ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه أوكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين، فعفا عنه.

وأخرج عن الأصمعي، قال: لقي «المنصور» أعرابياً بالشام، فقال: احمد الله يا أعرابي! الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت، قال: إن الله لا يجمع علينا حَشَفاً وسُوءَ كيل: ولايتكم والطاعون.

وكان «المنصور» يقبل الموعظة، ويستجيب لمن يعظه، قال «السيوطي»: وأخرج عن محمد بن منصور البغدادي قال: قام بعض الزهاد بين يدي «المنصور»، فقال: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك ببعضها، واذكر ليلة

تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده، فأفحم «المنصور» وأمر له بمال، فقال: لو احتجت إلى مالك ما وعظتك.

وأخرج عن عبد السلام بن حرب، أن «المنصور» بعث إلى «عمرو بن عبيد» فجاءه، فأمر له بمال، فأبى أن يقبله، فقال «المنصور»: والله لتقبَلنَّه، فقال: والله! لا أقبله، فقال له «المهدي»: قد حلف أمير المؤمنين، فقال: أمير المؤمنين أقوى على كفَّارة اليمين من عمك، فقال له «المنصور»: سل حاجتك، قال: أسألك ألَّا تدعوني حتى آتيك، ولا تعطيني حتى أسألك، فقال: علمت أني جعلت هذا ولي عهدي، فقال: يأتيه الأمر يوم يأتيه وأنت مشغول.

وأخرج عن عبد الله بن صالح، قال: كتب «المنصور» إلى «سوار بن عبد الله» قاضي البصرة: انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر فادفعها إلى القائد، فكتب إليه «سوار» إن البينة قد قامت عندي أنها للتاجر، فلست أخرجها من يده إلَّا ببيِّنَة، فكتب إليه «المنصور»: والله! الذي لا إله إلَّا هو لتدفَعنَّها إلى القائد، فكتب إليه «سوار» والله الذي لا إله إلَّا هو لا أخرجنها من يد التاجر إلَّا بحق، فلما جاءه الكتاب، قال: ملأتُها والله! عدلاً، وصار قضاتي تردني إلى الحق.

وأخرج من وجه آخر: أن «المنصور» وُشِيَ إليه بسوار، فاستقدمه، فعطس «المنصور»، فلم يُشَمِّتْه «سوار»، فقال: ما يمنعك من التشميت؟ قال: لأنك لم تحمد الله، فقال: قد حمدتُ اللهَ في نفسي، قال: شَمَّتُّك في نفسي، قال: ارجع إلى عملك، فإنك إذا لم تُحابني لم تُحَابِ غيري[1].

أجَل، إن القاضي الذي يخشى الله، لا يخشى سواه، ومن خشي الله مَنَعَه ممن يريد أذاه.

ومن قول ابن هَرْمَة في المنصور:

له لحظات عن حِفافَيْ سريره ... إذا كَرَّها فيها عِقاب ونائلُ
كريم له وجهان وجه لدى الرضا ... أسيل ووجه في الكريمة باسلُ

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٣٢ ـ ٢٣٩.

فأُمُّ الذي آمنت آمنة الردى وأُمُّ الذي أوعدت بالشكل ثاكلُ
وليس بمعطي العفو من غير قدرة ويعفو إذا ما مكّنته المقاتِلُ(١)

وروى «ابن عبد ربه الأندلسي» في «العقد الفريد» عن: زياد، عن مالك بن أنس، قال: بعث «أبو جعفر المنصور» إليَّ وإلى «ابن طاوس»، فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فُرُشٍ قد نُضِّدت، وبين يديه أنطاع قد بُسِطت، وجَلاَوزة ـ شُرَط ـ بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن: اجلسا، فجلسنا فأطرق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه والتفت إلى «ابن طاوس» فقال له: حدثني عن أبيك، قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجَوْر في عدله**»، فأمسك ساعة.

قال مالك: فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه، ثم التفت إليه «أبو جعفر» فقال: عظني يابن طاوس! قال: نعم، يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر، الآيات: ٦-١٤] . قال مالك: فضممتُ ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابي من دمه، فأمسك ساعة حتى اسوَدَّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يابن طاوس! ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، ثم قال: ناولني هذه الدواة، فأمسك عنه، فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية لله فأكون شريكك فيها، فلما سمع ذلك قال: قوما عني، قال «ابن طاوس»: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم. قال «مالك»: فما زلت أعرف لابن طاوس فضلَه(٢) .

وقال صاحب «العقد الفريد»: وأرسل «أبو جعفر» إلى «سفيان الثوري»، فلما دخل عليه قال: عظني أبا عبد الله! قال: وما عملتَ يا أمير المؤمنين فيما علمتَ فأعظك فيما جهلتَ؟ فما وجد له «المنصور» جواباً(٣) .

---

(١) العقد الفريد (١/ ٣٧).
(٢) العقد الفريد (١/ ٥٤ ـ ٥٥).
(٣) المصدر السابق نفسه (١/٥٧).

وروى أيضاً عن المدائني، قال: لما كتب «أبو جعفر» أمان «ابن هبيرة»، واختلف فيه الشهود أربعين يوماً، ركب في رجال معه، حتى دخل على «المنصور»، فقال له: يا أمير المؤمنين! إن دولتكم هذه جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها، وجنِّبوهم مرارتها، لتسرع محبتكم إلى قلوبكم، ويعذب ذكركم على ألسنتكم، وما زلتُ مُنتظراً لهذه الدعوة.

فأمر «أبو جعفر» برفع الستر بينه وبينه، فنظر إلى وجهه، وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه، فلما خرج قال «أبو جعفر» لأصحابه: عجباً لمن يأمرني بقتل مثل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدراً[(١)].

وجاء في «العقد الفريد»: ودخل «معن بن زائدة» على «أبي جعفر»، فقال له كبرتَ يا معن! قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين! قال: وإنك لجَلْد، قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين! قال: وإن فيك لبقية، قال: هي لك، يا أمير المؤمنين! قال: أي الدولتين أحب إليك أو أبغض؟ أدولتنا أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك، يا أمير المؤمنين! وإن زاد بِرُّك على بِرِّهم كانت دولتك أحب إليَّ، وإن زاد بِرُّهُمْ على بِرِّك كانت دولتهم أحب إليَّ، قال: صدقت.

وجاء في «العقد» أيضاً: وأقبل «المنصور» يوماً راكباً، والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب، فقام الناس إليه، ولم يقم، فاستشاط «المنصور» غيظاً وغضباً ودعا به فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيتني؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى: لِمَ فعلت؟ ويسألك عنه: لِمَ رضيتَ؟ وقد كرهه رسول الله ﷺ، فسكن غضبه، وقرَّبه، وقضى حوائجه[(٢)].

وروى ابن عبد ربه، عن أبي الحسن المدائني، قال: لما حجَّ «المنصور» مرَّ بالمدينة، فقال للربيع الحاجب: عليَّ بجعفر بن محمد، قتلني الله إن لم أقتله، فَمُطِلَ به، ثم ألَحَّ عليه فحضَر، فلما كشف الستر بينه وبينه، همس «جعفر» بشفتيه؛ ثم تقرَّب وسلَّم، فقال: لا سلَّم الله عليك، يا عدو الله! تُعْمِلُ عليَّ الغوائل في مُلكي، قتلني الله إن لم أقتلك، قال: يا أمير المؤمنين! إن «سليمان»

(١) العقد الفريد (١/٧٩ ـ ٨٠).
(٢) العقد الفريد (٢/١٤٦).

صلى الله على «محمد» وعليه، أعطي فشكر، وإن «أيوب» ﷺ ابتُلِيَ فصبر، وإن «يوسف» ﷺ ظُلِمَ فغفر، وأنت على إرث منهم، وأحقُّ من تأسى بهم، فنكّس «أبو جعفر» رأسه مَلِيًّا، و«جعفر» واقف، ثم رفع رأسه فقال:

إليَّ أبا عبد الله! فأنت القريب القرابة، وذو الرحم الواشجة، السليم الناحية، القليل الغائلة، ثم صافحه بيمينه، وعانقه بشماله، وأجلسه معه على فراشه، وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسائله، ثم قال: يا ربيع! عَجِّل لأبي عبد الله كُسْوته وجائزته وإِذْنَه.

قال «الربيع»: فلما حال الستر بيني وبينه أمسكت بثوبه، فقال: ما أُرانا يا ربيع إلَّا وقد حُبِسْنا؛ فقلت: لا عليك، هذه مني لا منه؛ فقال: هذه أيسر، سل حاجتك، فقلت له: إني منذ ثلاث أدفع عنك، وأداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك، ثم رأيتُ الأمر انجلى عنك، وأنا خادم سلطان، ولا غنًى لي عنه فأحب منك أن تُعْلِمَنيه، قال: نعم، قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنُفْني بحفظك الذي لا يُرام، ولا أَهلِكُ وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها عليَّ قلَّ لك عندها شكري فلم تحرمني، وكم من بلية ابتُلِيتُ بها قلَّ عندها صبري فلم تخذلني، اللهم! بك أدرأُ في نحره، وأستعيذ بخيركَ من شره، فإنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا «محمد» وآله وسلم[(١)].

وورد في «العقد الفريد»: وقال «المنصور» لمعن بن زائدة: ما أظن ما قيل عنك من ظلمك أهل اليمن، واعتسافِك عليهم إلَّا حقاً؟ قال: كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: بلغني عنك أنك أعطيت شاعراً لبيت قاله ألف دينار، وأنشده البيت، وهو:

معن بن زائدة الذي زيدت به ... فخراً إلى فخر بنو شيبانِ

قال: نعم، يا أمير المؤمنين! قد أعطيته ألف دينار، ليس على هذا البيت، ولكن على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية مُعْلِماً ... بالسيف دون خليفة الرحمٰنِ

---

(١) العقد الفريد (٢/١٥٩ ـ ١٦٠).

فمنعت حَوْزَته وكنت وِقاءَه مِن وقع كل مهنَّد وسِنانِ

قال: فاستحيا «المنصور»، وجعل ينكت بالمخصرة، ثم رفع رأسه وقال: اجلس أبا الوليد![1].

وقال «أبو جعفر» لعمرو بن عبيد: أعني بأصحابك، يا أبا عثمان! قال: ارفع علم الحق يتبعك أهلُه[2].

وذكر ابن عبد ربه: بينما «المنصور» في الطواف بالبيت ليلاً، إذ سمع قائلاً يقول: اللهم! إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج «المنصور» فجلس في ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى ركعتين، واستلم الركن، وأقبل مع الرسول، فسلَّم عليه بالخلافة، فقال «المنصور»: ما الذي سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله! لقد حشوتَ مسامعي ما أرْفَضَني ـ آلمني ـ، فقال: إن أمَّنتني يا أمير المؤمنين! أعلمتك بالأمور من أصولها، وإلَّا احتجزت منك، واقتصرتُ على نفسي فلي فيها شغل، قال: فأنت آمِنٌ على نفسك فقُلْ، فقال: يا أمير المؤمنين! إن الذي دخله الطمع وحال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنت؛ فقال: فكيف ذلك؟ ويحك! يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك؟ إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بَينك وبينهم حجاباً من الجص والآجُر، وأبواباً من الحديد، وحراساً معهم السلاح، ثم سجنت نفسك عنهم فيها، وبعثت عمالك في جبايات الأموال وجمعها، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع، وأمَرْتَ ألَّا يدخل عليك من الرجال إلَّا فلان وفلان نفراً سمَّيتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري، ولا الضعيف الفقير إليك، ولا أحد إلَّا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرت ألَّا يحجبوا دونك،

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧).
(٢) العقد الفريد (٢/ ٢٧٤).

تجبي الأموال وتجمعها، قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه؟ فائتمروا ألَّا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرجَ لك عامل فيخالف أمرهم إلا خَوَّنوه عندك ونَفَوْه حتى تسقط منزلته، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم مَنْ دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وبغياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء فتظلم حيل بينك وبينه، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدَك قد نهيت عن ذلك، ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلِّم، فبلغ بطانتَك خَبَرُه، سألوا صاحب المظالم، ألَّا يرفع مَظْلِمَته إليك، فإن المتظلِّم منه له بهم حُرْمَة، فأجابهم خوفاً منهم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه، ويلوذ به، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه، فإذا أُجْهِد وأُخرِج ثم ظهرتَ صرخ بين يديك، فيُضرب ضرباً مبرِّحاً يكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر فما تُنْكِر، فما بقاء الإسلام على هذا؟ وقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين، فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكى بكاء شديداً، فحثه جلساؤه على الصبر، فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة بي، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته. ثم قال: أما إذا قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس ألَّا يلبس ثوباً أحمر إلَّا متظلم، ثمَّ كان يركب الفيل طرفي النهار وينظر هل يرى مظلوماً؟

فهذا يا أمير المؤمنين! مشرك بالله، بلغت رأفتُه بالمشركين هذا المبلغ، وأنت مؤمن بالله، من أهل بيت نبيه، لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك، فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مال، وما من مال إلَّا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولستَ الذي تعطي، بل الله الذي يعطي من يشاء ما يشاء، فإن قلت: إنما تجمع المال لتشُدَّ به السلطان، فقد أراك الله عبراً في بني أمية، ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكُراع، حين أراد الله بهم ما أراد، وإن قلت: إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله! ما فوق

ما أنت فيه إلَّا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه، يا أمير المؤمنين! هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ فقال «المنصور»: لا، فقال: فكيف تصنع بالمَلِكِ الذي خوَّلك مُلْك الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل، ولكن بالخلود في العذاب الأليم؟ قد رأى ما عُقِدَ عليه قلبك، وعملته جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحته يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يغني عنك ما شَحِمْت عليه من مُلْك الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟

قال: فبكى «المنصور»، ثم قال: ليتني لم أُخْلَق، ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم، ويرضَوْن بهم في دنياهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يُسَدِّدوك؛ قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهِّل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات من جلِّها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة، وجاء المؤذنون فسلَّموا عليه، فصلى وعاد إلى مجلسه، وطُلِبَ الرجل فلم يُوجَدْ[1].

وروى أيضاً عن الأوزاعي، قال: دخلتُ عليه فقال لي: ما الذي بَطَّأ بك عني؟ قلتُ: وما تريد مني يا أمير المؤمنين!؟ قال: الاقتباس منك، قلت: يا أمير المؤمنين! انظر ما تقول، فإن «مكحولاً» حدثني عن «عطية بن بشر»؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ بلغته عن الله نصيحة في دينه، فهي رحمة من الله سيقت إليه، فإن قَبِلها من الله بشكر، وإلَّا فهي حجة من الله عليه، ليزداد إثماً، ويزداد الله عليه غضباً، وإن بلغه شيء من الحق فرضي فله الرضا، وإن سخط فله السخط، ومن كرهه فقد كره الله ﷻ، لأن الله هو الحق المبين»**.

ثم قلت: يا أمير المؤمنين! إنك تحملت أمانة هذه الأمة، وقد عرضت على السمٰوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وقد جاء عن جدك «عبد الله بن عباس» في تفسير قول الله ﷻ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف، الآية: ٤٩] قال: الصغيرة: التبسم، والكبيرة: الضحك، فما ظنك بالقول

(١) العقد الفريد (٣/١٥٩ ـ ١٦١).

والعمل؟ فأُعيذك بالله، يا أمير المؤمنين أن ترى أن قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك مع المخالفة لأمره، فقد قال ﷺ: «يا صفية» عمة «محمد»، ويا «فاطمة» بنت محمد «استوهبا أنفسكما من الله، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً»، وكذلك جدك «العباس» سأل إمارة من النبي ﷺ، فقال: «أيْ عم! نفس تحييها، خير لك من إمارة لا تحصيها» نظراً لعمه، وشفقة عليه من أن يلي فيحيد عن سنته جناح بعوضة، فلا يستطيع له نفعاً، ولا عنه دفعاً، وقال ﷺ: «ما من راع يبيت غاشًّا لرعيته إلَّا حرَّم الله عليه رائحة الجنة»، وحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً، وبالحق فيهم قائماً، فلا يتخوف محسنهم منه رهقاً، ولا مسيئهم عدواناً، فقد كانت بيد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها، ويردع المنافقين عنه، فأتاه «جبريل»، فقال: يا محمد! ما هذه الجريدة التي معك؟ اتركها لا تملأ قلوبهم رعباً، فما ظنك بمن سفك دماءهم، وقطَّع أستارهم، ونهب أموالهم؟

يا أمير المؤمنين! إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، دعا إلى القصاص من نفسه بَخدش خدشه أعرابياً لم يتعمَّده، فقال «جبريل»: يا محمد! إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك، واعلم يا أمير المؤمنين! أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة، ولا ثمرة من ثمارها، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأهلك الناسَ رائحته، فكيف بمن تقمّصه؟ ولو أن ذَنوباً من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الدنيا لأحَمَّه ـ لسخَّنه ـ فكيف بمن تجرَّعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جَبَل لأذابته، فكيف بمن يُسْلَكُ فيها، ويُرَدُّ فَضْلُها على عاتقه؟[(١)]

وذكر صاحب «العقد الفريد» أن «أبا جعفر» لقي «سفيان الثوري» في الطواف، فقال: ما الذي يمنعك «أبا عبد الله أن تأتينا؟» قال: إن الله نهانا عنكم، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود، الآية: ١١٣]، وقدم «هشام بن عبد الملك» المدينة لزيارة القبر، فدخل عليه «أبو حازم الأعرج»، فقال: ما يمنعك «أبا حازم!» أن تأتينا؟ فقال: وما أَصْنَعُ بإتيانك يا أمير المؤمنين!؟ إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني أخزيتني، وليس عندي ما أخافك

(١) العقد الفريد (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

عليه، ولا عندك ما أرجوك له[١].

وروى «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» عن غير المدني، قال: قدم «المنصور» المدينة، و«محمد بن عمران الطلحي» على قضائه، وأنا كاتبه، فاستعدى الجمَّالون على «المنصور» في شيء، فأمرني أن أكتب إليه بالحضور وإنصافهم، فاستعفيت، فلم يعفني، فكتبت الكتاب، ثم ختمته، وقال: والله! لا يمضي به غيرك، فمضيت به إلى «الربيع»، فدخلت عليه، ثم خرج، فقال للناس: إن أمير المؤمنين يقول لكم: إني قد دُعيتُ إلى مجلس الحكم، فلا يقومَنَّ معي أحد، ثم جاء هو و«الربيع»، فلم يقم له القاضي، بل حَلَّ رداءه، واحتبى به، ثم دعا بالخصوم، فادَّعَوْا، فقضى لهم على الخليفة، فلما فرغ، قال له «المنصور»: جزاك الله عن دينك أحسن الجزاء، قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار.

وروى «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء»: وأخرج محمد بن سلام الجمحي، قال: قيل للمنصور: هل بقي من لَذَّات الدنيا شيء لم تنله؟ قال: بقيت خصلة، أن أقعد في مصطبة، وحولي أصحاب الحديث.

يقول المستملي: من ذكرت رحمك الله، فغدا عليه الندماء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر، فقال: لست بهم، إنما هم الدَّنِسَةُ ثيابهم، المشقَّقةُ أرجلهم، الطويلةُ شعورهم، بُرُدُ الآفاق، ونقلة الحديث.

وأخرج عن محمد بن سلام، قال: رأت جارية «المنصور» قميصه مرقوعاً، فقالت: خليفة وقميصه مرقوع! فقال: ويحك! أما سمعت قول «ابن هَرْمَة»:

قد يدرك الشرفَ الفتى ورداؤه ... خَلَقٌ وجيبُ قميصه مرقوعُ[٢]

وذكر «السيوطي»: روي أن «المنصور» أَلَحَّ عليه ذُباب، فطلب «مقاتل بن سليمان»، فسأله: لِمَ خلق الله الذباب؟ قال: ليُذِلَّ به الجبارين[٣].

ومن كلام «المنصور»: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاث خلال: إفشاء

---

(١) العقد الفريد (٣/ ٢٠٠).

(٢) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٣٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص: ٢٣٧.

السر، والتعرض للحرم، والقدح في الملك، أسنده الصولي(١).

ووافت «أبا جعفر المنصور» المنية سنة ثمان وخمسين ومائة يوم السبت قبل يوم التروية بيوم واحد.

وأما نساء وأبناء «المنصور» فقد ذكرهم «أبو جعفر الطبري» في تاريخه، فقال: فمن ولده «المهدي» ـ واسمه محمد ـ، و«جعفر الأكبر» وأمهما «أروى بنت منصور «أخت» يزيد بن منصور الحميري، وكانت تكنى «أم موسى»، وهلك «جعفر» هذا قبل «المنصور».

و«سليمان» و«عيسى» و«يعقوب» وأمهم «فاطمة بنت محمد» من ولد «طلحة بن عبيد الله».

و«جعفر الأصغر» أمه أم ولد كردية، كان «المنصور» اشتراها فتَسَرَّاها، وكان يقال لابنها: ابن الكردية.

و«صالح المسكين» أمه أم ولد رومية، يقال لها: «قالي الفَرَّاشة».

و«القاسم» مات قبل «المنصور»، وهو ابن عشر سنين، وأمه أم ولد تعرف بِ«أم القاسم»، ولها بباب الشام بستان يعرف إلى اليوم ببستان «أم القاسم».
و«العالية» أمها امرأة من بني أمية، زوجها «المنصور» من «إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس».

وذكر عن «إسحاق بن سليمان» أنه قال: قال لي أبي: زوجتك يا بني أشرف الناس، «العالية» بنت أمير المؤمنين، قال: فقلت: يا أبتاه! مَنْ أكفاؤنا؟ قال: أعداؤنا من بني أمية(٢).

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٣٧.
(٢) تاريخ الطبري (٨/ ١٠٢).